العملاق

المسيرة من مدينة "**كازابلانكا**" التي تتكئ على ساحل **(المحيط الأطلسي)الشرقي**، إلى مدينة "**الرباط**"العاصمة السياسية للمملكة المغربية، **بالقطار**، لم تتعد الخمس والأربعين دقيقة **(ساعة إلا ربع و "بس")**، أعجبني ذلك **القطار** الذي ضمني إليه، بين أناس متدافعين بداخله، من أجل الظفر بمقعد من تلك المقاعد الوثيرة الوافرة، والتي ستسعهم جميعاً، إلا أنه وبحكم عاداتنا و"**شفقتنا**"، في عالمنا الثالث، تلزمنا "**المدافرة**" حتى ولو كنا وحيدين نتناجى و أنفسنا.

أعجبني ذلك **القطار** الذي لم ينزل بأرضه **(الهم)**، مما يدفعني أن أطلق عليه مسمى **(قطار الهم)**، فافتقدت ساعتها:

(عم الزين، والسنطور، والتابلت، والصفارة، والجرس الرنان، الذي يوحي لنا دائماً، نحن جيل القطارات، خلال أيام ماضيات، بروح الانضباط والالتزام، حيث كان يتسنى لنا أن نوجه (شوكات) ساعاتنا، أو أرقامها الالكترونية، لتستقر في مواقعها الصحيحة ليلاً كان ذلك أم نهاراً، عندما تحين ساعة تحرك القطار من محطة الانطلاق، أو عند قدومه إلى محطة الوصول، خلال كل المواسم والفصول).

ينبئ **القطار** عندنا بتداعي الأحزان، واستثارة الشجون ساعات الرحيل والفراق، فيتفق الجميع على إيقاف **(عجلاته)** عن الدوران أو حتى تمني تحطيمه! من خلال الدعوات والتضرعات إلى الله تعالى:

(يا القطار تدشدش،

الشلت محبوبي!

www.omerelaimas.com

وهم يكيلون اللوم والسباب، في نفس الوقت، عليه... وعلى سائقه... وعماله... ومحطاته... وسرعته الزائدة... وذلك بفعلته التي قصد بها إشعال نيران الفراق، والبعاد عن ديار الإلف والوئام.

أو قد يخاطبونه بقولهم:

من بف نفسك يا القطار،
ولهيب صدرك أنا قلبي طار،
وينو الحبيب..؟

(انت شلتو...
جيبو يا القطار).

لكن وحسب ما أحسست **ف...(قطار كازا)**... "**تفسه ما حار زي حقنا**"، الذي يلهث ما بين المدارين **(مدار السرطان ومدار الجدي)**، صيفاً وشتاءً... في تفانٍ متلاحق، **(عشان كدا... أصبح بعبع للعشاق)** وبالذات عندما يودِعُون بداخل **عرباته** من يحبون.

أو كمن **يقول:**

القطر... القطر،
نويت السفر،
هيجت حبيبي....
وانا دمعي انهمر.

www.omerelammas.com

إنّ ما فات على الشعراء المصابين **ب...(فوبيا القطارات)**، أنهم نسوا أو تناسوا قطارات البضائع... وقطارات المحروقات... والقطار المشترك... والقطار المحلي... والقطار السريع... ومترو الأنفاق...وغيرهم من المسميات، فهناك القطارات التي تستخدم **الفحم الحجري** كوقود وتعرف بقطارات **البخار**، أو التي تستخدم **الجازولين** وتعرف بقطارات **الديزل**، والقطارات الكهربائية التي تستخدم في تحريكها الكهرباء....

(لكن الفوبيا الجد..جد.. تلك التي تنتج من قطار الزواج (البورة)... وما يخلفه من تداعيات... قد تؤدي للجنون و (البشتنة) و (الكلام الما موزون)... في بعض الحالات)

(غير أن القطارات تتساوى جميعاً في تحريك الوجدان الشعري واستثارة الآلام في نفس الوقت، وفي إحراق قلوب العاشقين من فرط المعاناة، كما أنه يعمل على توزيع الفرحة والبشاشة لقلوب البعض ...ساعات القدوم).

في جانب آخر تعلمنا من سلوك قطاراتنا في الوقت الفائت، ماهية السلوك **الإنساني والتربوي** على السواء، وكنا في ذلك كقطاراتنا **(ما بنلعب بالوقت)** بل نوليه العناية والاحترام، فكنا في **ميعادنا وفي وعدنا** لا نتجاوز ما تنص عليه اللوائح، أو ما نتقوّل به مع بعضنا، عبر ما أتيح لنا من وسائط آنذاك، ومن بينها "**ألسنتنا**".

حدثني من قال أن الأستاذ التربوي المعروف، **(هاشم ضيف الله)**، طيب الله ثراه، الذي كان في وقت سبق **(ناظراً)** لمدرسة **(حنتوب)** الثانوية الشهيرة، كان الكل في المجتمع المدرسي بمعلميه، وطلابه، وموظفيه، وعماله، يعملون على ضبط ساعاتهم عندما تتطلع أبصارهم ساعة **مقدم أو رواح** الأستاذ **(هاشم)** من وإلى المدرسة، مثلما يفعلون عند سماعهم **ل...(الرنات)** المميزة لساعة **(بق بن)** اللندنية الشهيرة، التي تتناغم كثيراً ونبضات قلوبنا عندما يحين وقت بث النشرات الإخبارية...

www.omerelamnas.com

وهو ذات الحال عندنا **(أيام زمان)**...حينما يردد المذيع عبر إذاعة أمدرمان **الوحيدة آنذاك... (أعلنت ساعة البلدية تمام الساعة كذا...)**، فنعمد على التو لضبط ساعاتنا باستخدام ذلك **(الزمبلك)** الذي لا زال **(يعشعش)** بأذهاننا.

(لننظر نحن الآن! أين يا ترى نقف من ذلك السلوك التربوي الراحل؟).

راعني قطار **"كازا"** ،كما يحلو لأهلها أن يتنادوا بذلك الاسم المخفف، بدلاً عن **"كازابلانكا"** والتي تعرف أيضاً باسم **"الدار البيضاء"، (نسبة لما يغطي مبانيها ونفوس ساكنيها من بياض ناصع غير مشوب)** فتذكرت في أهلي:

بياض النفوس وبياض الضمائر (الزي الدبلان) و (زي الفضة و ريالاتها)... التي تبعث السرور في النفس.

و

(الزول أب سناً فضة "مالا" السلام ما برُده؟)

و كلمة **"مالا"** تعني **"مالو" أو "ماله" أو "لماذا"؟**

أما كلمة "ما بردا" ...أي **"مابرده" ...وتقرأ ب.."فتح الدال المشددة" و "إبدال الهاء ألفاً".**

و

سنك ريال جيد

www.omerelamin.com

دقاقا مو بليد

أنِي سايرة امنعيّد
في دار اللبيض.

و

داك براقاً قبلي
فوق عربي وفوق ابلي

يا بخيت أحلبلي
لبن أم زور طايب لي.

إنّ كلما جاء في المقاطع السالفة مشبع تماماً **ب... (البياض)**، الذي يسمو بنا فوق ما تنضح به المدن ومبانيها من **(بياض)**.

كانت "عربات قطار كازا" باردة و "مكيفة" و "مزججة" تتمتع نوافذها بالزجاج المقوي الشفاف، وهي ذات مقاعد وثيرة، تتوق في لهف لتقديم الراحة التامة لمرتاديها المتجددين دوماً، كما أنها (مبطنة) بالنفيس من كل ما يستخدم في "التبطين" كالجلد الصناعي، والأقمشة الثقيلة الزاهية بشتى أنواعها، علاوة على:

(تمديد المسافر ل .."كرعيه"،
من غير أن يخاف عليهما من:
"العفص" غير المقصود.

www.omerelammas.com

ومن:

"الخدر" الناتج عن الإلتواء).

أدرت عيناً قلقة في أرجاء **صالة الوصول بمدينة (الرباط)**، حيث تقافزت أمامها آيات الجمال، وتناثرت حولها عيون، ملأت بتلألئها أركان المكان وحواشيه، لما كستها بهاءً وزينة، فأصبحت كالحسناء تختال في ثوب من الدلال مسبولٍ، كثيراً ما ينزلق من على كتفين، دثرتهما بالحرير ناضرات الأزاهير النابضة حياة وحياء.

تبصرت طريقي من غير معاناة تُذكر، فقادتني خطواتي الخجولة، وهي تطأ ملس الرخام من تحتها، لتزداد زهواً وكبرياءً، فتعالت بي ثم سمت، **لاسيما وأنا ود (عز)، من وطن موسوم بكل معاني العز والفخار**، يناديني فأدنيه ويدنيني، كلما شط بي المزار، فكان لسان حالي يردد ما بين **الفينة والأخرى:**

أفديك بالروح يا موطني،
فأنت دمي.....
كل ما أقتني!
بلادي أنا.

تركت تلك **الصالة** الممشوقة من خلفي، وهي تنادي في شغف عليّ، استدعيتها فمثلت أمامي تتهادى في مشيتها الموسقة، ظلت تقودني في ألفة حميمة، حيث يمكث ذلك **(العملاق الأسطورة)**، الذي دعتني للقياه رغبتي وإرادتي، بمقاطعة **(تمارة)** عند قاعة بفندق **(ياسمينة)**، القابع على ساحل **الأطلسي.**

تخيلته لما رأيته، يترنم ويشدو قائلاً:

www.omerelamrani.com

عـريت من الـشباب غـضاً
كما يعـرى من الورق القضيب

ونحت على الشباب بدمع عينـي
فمـا نفـع البكـاء ولا النحـيب

ألا لـيت الشباب يعـود يومـاً
فأخـبره بمـا فـعل الـمشيب

انسلخ الشباب منه فقد كان غض الإهاب، ممتشق العود ناضره، فألفيته وقد غطى الشيب هامته، وتناثرت بعض من شعيراته الهلكى، من جانبي تلك القبعة المغربية السوداء، التي يمثل طرفها العلوي الأمامي، مظلة تحمي تلك **العينين الإفريقيتين الواسعتين**، اللتين يكسوهما بريق لامع لماح، وهو كل ما تبقي من أثر لنضارة أيام الشباب الخاليات.

لا زالت العينان منه تنضحان بذكاء متقد، وتتحدثان بنظرات ثاقبة، توحي بالكثير الذي يمكن أن يثار، والذي ربما يمثل إضافة ثرة لماضي ذلك الرجل العبقري.

فهو الذي يقول: في **قصيدة (ياقوت العرش)،**

دنيا لا يملكها من يملكها،
أغنى أهليها سادتها،
الفقراء.....
الخاسر من لم يأخذ منها...
ما تعطيه،

www.omerelamnas.com

على استحياء .....
والغافل من ظن الأشياء،
هي الأشياء .....

تقاربت رجلا العملاق الأسطورة على صعيد واحد، فصارتا أكثر التصاقاً فيما بينهما، تتلمسان قاعدة حديدية زينت تلك **الدراجة الهوائية المتواضعة**، فهي دراجة يمتلكها المقعدون إما بشرائها من حر مالهم، أو قد تكون هدية من **(فاعل خير)**. تولت قيادتها **(زوجه المغربية الأصل)**، وبجانبها صبية يافعة هي **ابنته الوحيدة** منها.

ضمرت اليدان وأضحى الجلد الذي يكسوهما هيناً و **(رهيفاً)** أي أصبح **(مكرمشاً)**، ترادفت طياته الواهنة في تتابع لا نهائي، فهو لا يقوى على التفاعل الجاد، مع ما تدفع به الطبيعة من شمس أو زمهرير، تكسوه شعيرات رقيقات متفرقات، وخطها شيب يخطؤه اللمعان الناصع، فقد اعتلاه وهن ممقوت، مما جعل تلك التيارات الخفيفة المنبعثة من **(مراوح السقف)**، تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال، لاسيما والساعدان يبسطان راحتيهما على جانبي الدراجة العلويين، في هدوء تام.

إن كل ما تبقى من كلمات لذلك الرجل العبقري، الذي كان قد ملأ الدنيا ضجيجاً وصخباً، إفريقياً وعربياً، لأكثر من نصف قرن من الزمان، بعض من كلمات لا زالت تتبوأ مكانتها بين مخارج الكلم، من خلال ذلك الفم الذي ما عاد ينثر الحديث الأخاذ السلس المتتابع، كلمات لا زال يجترها لتعبر عما يجيش بخلده، أو ما ينم بما تمليه وجدانياته:

(يا الله)

www.omerelammas.com

كان يبعث بها بقوة القادر، الذي لا يستطيع أن يضع حاشية كلامية حولها، فكان يستخدمها ما بين الفينة والأخرى، بصوت جهوري يقطع أوصال حديث المتحدثين والحاضرين، من الشعراء والمحبين للرجل ولقامته الشعرية السامقة، تأثر الحاضرون جميعاً عندما أدركوا أن كل ما تبقى من بحر الكلم لدى الرجل كلمتان لا غيرهما:

(يا الله)

ذلك إذا ما اعتبرنا **(ياء المناداة)** كلمة وليس حرفاً، إن جاز لنا ذلك، وإلا فلفظ الجلالة وحده يعني لنا الكثير مما كان يجيش بخواطر الرجل.

وهو ذاته ذاك الصوت الذي كان يجلجل طرباً في الأرجاء، يشنف آذان المستمعين المنصتين، الذين يظلون في صمتهم الضجيع، يباعدون ما بين مسامعهم ونهايات القصيد، فهم لا يرجون انقطاعه:

عن أي بلاد العالم تسألني،
يا محبوبي.....؟

عن حوت قدماه من صخر،
عيناه من ياقوت،

عن سحب من نيران.....؟
وجزائر من مرجان.....؟

عن ميت ***يحمل جثته،***
ويهرول حيث يموت.....؟

www.omerelarnas.com

لا تعجب يا يا قوت،
الأعظم من قدر الإنسان.....
هو الإنسان!

تقدمت في سعادة غامرة يسودها التوجس، إلى حيث كان الرجل يجلس داخل عربة صغيرة **(صالون)** متواضعة، على المقعد المجاور للسائق، قرب المدخل الرئيس **للقاعة.**

عمدت إلى كفه اليسرى فأمسكت بها برفق وهي تستريح على فخذه، حيث أنها كانت أقرب إلى مزاولة الإحساس السليم مقارنة بكفه اليمنى، فتبينت رقتها بين أصابع كفي التي احتوتها بكاملها، أدركت نعومتها بما رسمته خطوط الكبر عليها، فهي ذاتها التي كستها نعومة ورقة، بمقدار ما أفرزته قوة شعره وسطوته من إبداع، فبالرغم مما انطبع عليها من تلك النعومة والرقة، كنت أحس بقوتها وصلابة معدنها.....

وأنا ساعتها **ألملم جسدي في انحناءة،** أُكمل بها ترتيب ما قد يجسد أحاسيس الاحترام والتبجيل من كلمات، **فهي التي جعلتني أكثر قرباً من ناظريه،** الذين تغلغلا عبر نظراتهما الثاقبة، في متاهات وجهي، متسائلة وتواقة لمعرفة مصدر هذه **الحميمية، والانتماء، والإعجاب،** من شخص لم تشهداه من قبل، لكنه **(سوداني) بالميلاد.**

لم أكلف الرجل كبير معاناة فسارعت قائلاً:

(أنا فلان ....السوداني،
أحد أساتذة جامعة أمدرمان الإسلامية).

www.omerelamin.com

هنا!... صاح الرجل في قوة، لفتت كل أنظار الحاضرين من حولنا، فرمقتني ومن أناجي في لحظة واحدة، و بنظرة استفسار متداعية! هتف قائلاً:

(يا الله)

لا تزال نظراته تغوص في دواخلي، تفتت ما علق بها من معانٍ مبعثرة، فدلفت إلى تجميعها وترتيبها، وقمت على سبل الدثار عليها، بكلمات علها تفي بما يجوس في أغوار نفسي التائهة، فهي شتات مما قد يليق بمقام الرجل الذي نضد ساحات العروبة، و متاهات إفريقيا النابضة، **بسحر الكلم، وألق النظم، ومنثور الحديث.**
فكأني به يقول:

لن تبصرنا بمآقٍ غير مآقينا،
لن تعرفنا.....
ما لم نجذبك،
فتعرفنا.....

أدنى ما فينا،
قد يعلونا،
يا ياقوت!

فكن الأدنى،
تكن الأعلى فينا.

وتجف مياه البحر....
وتقطع هجرتها أسراب الطير،
والغربال المثقوب على كتفيك.

www.omerelarnas.com

وحزنك في عينيك.....
جبال،
ومقادير،
وأجيال،
يا محبوبي.

لا تُبكيني!
يكفيك ويكفيني،
فالحزن الأكبر ..... ليس يقال.

كان ينصت بكل ما تحويه **(مسامعه)** من أدوات الفهم المهيأة بأكملها، لما ستلتقطه وتستوعبه من ذلك الشتات، فتحاشيت أن أبكيه.... وتجرعت في ألم ما طرق أذن مخيلتي من كلمات لا زالت **تدور..... وتدور..... فتقذفني.... وتجمعني.....** **وأنا في شغلٍ، ألملم بعضاً من شتات الذكريات المضنيات الباكيات:**

(لا تبكيني! يكفيك ويكفيني! فالحزن الأكبر..... ليس يقال).

فتمنيت له:

(طول العمر، ودوام العافية، والسعادة)

لقد سرقت تلك اللحظات على مرأى من كل الحاضرين، رغم ما نبا إلى سمعي من تحذيرات تقف حداً مانعاً للاقتراب، من حيث يجلس **ذلك الطود الشامخ الأشم،** في معزل عن الآخرين.

www.omerelamnas.com

فككت يده... وإن كنت لا أنوي ذلك، وقد تحدرت من تحت جفني، مجموعات من قطرات ماء مالحة، سالت متدحرجة إلى الأسفل، من غير استئذان.

لمست دفئها داخل أوصالي الممزقة، أما طعمها فلا زال يراودني مذاقه، كلما هاجت بي الذكرى **(وحشرتني)** في ثنايا تلك اللحظات الباقيات أبداً..

تراجعت القهقرى...
في خطوات غير مرئية،
تاركاً أمامي عينين! لا زالتا تحلقان حولي،
تجوسان بداخلي...
في اهتمام بالغ....
(بحسب ظني)!

كان ذلك اللقاء بمثابة تكريم لذلك الرجل، **من قبل و صنيع (اتحاد الكتاب المغاربة)**، أمّه جمع كبير من أهل الثقافة بالمغرب، من بينهم **الكتاب، والشعراء، والأدباء، والمتحدثين من ذوي الثقافة والمعرفة اللغوية.**

انكفأ الجميع ينقبون، وينثرون ما طاب لهم من حديث، انصب جله في سيرة ذلك العملاق المكرم، و في أدبه، وشعره، ومعينه الذي لا ينضب.

تتابعت فقرات التكريم، الواحدة تلو الأخرى، في تناسق ملفت، شارف نهايته بعد أكثر من أربع ساعات متواليات ومتتاليات، زانت ليل **مدينة الرباط المغربية** المتفرد الآسر، حيث لا يفصل بينها إلا كل ما هو جميل منظوم، مما انبعث من كلمات، كثيراً ما عبرت عما يجيش بداخل **الرجل** من مشاعر وأحاسيس مرهفة، **مثل:**

(برافو)

www.omerelammas.com

و

(آآآآآه....آآآه....آآه)

تداعت عليه مختلف أنواع التكريمات العينية، من أوسمة جملت كتفيه، ومن شهادات تقديرية، و(ملفوفات) متنوعة، إلى غير ذلك من الهدايا، والأنواط، التي تزينت بالرجل وازدهت.

سعى بي حظي إلى مجالسة ذلك الأسطورة جنباً إلى جنب، ومن قبيل الصدفة فقد تشابه ما كنا نرتدي من ملابس **حتى القبعة المغربية والبدلة**، ومما أسعدني كثيراً تولي كاميرات التصوير، أمر توثيق تلك اللحظات التي قلما يجود الزمان بمثلها.

تلاقت عيوننا، وتداخلت نظراتنا، فتحدثت إلى نفسي، وحدثني سراً يردد في مسمعي، من غير صوت يعلو، بل كان إلهامياً بحتاً، أخذ موقعه في نفسي القلقة وشدا **قائلاً**:

ما بيدي أن أرفعك.....
ولا بها أن أضعك،

أنت أليم.....
وأنا أحمل آلامي معك،

وجائع،
ومهجتي جوّعها من جوّعك،

www.omerelannas.com

وأنت عارٍ،
وأنا... ها أنذا،
عار معك....
ما أضيعني وأضيعك،

ما أضيع الثدي الذي أرضعني،
وأرضعك،
يا ليته جرعني سمومه،
وجرعك.....

فما احتقرت أدمعي،
ولا احتضنت أدمعك،

ولا انكفأت فوق قبر اليأس،
أبكي مصرعك..

غير أن نفسي أبكتني وبكت معي، فآثرت البقاء إلى جانبه، **لكنها النهاية!**

فقد حانت **ساعة الرحيل**، وهاجني ما خلف بين جوانحي **من (وجع دفين)**، استطاع أن يدفع بي نحو **الدراجة** التي احتوت ما تبقى من جسد ذلك **الرجل العملاق.**

رافقت تلك الدراجة، التي ألفت شاعرنا المكرم وألفها، حيث ساقته متعاونة في ذلك برفيقة دربه **(الصالحة)**، إلى حيث تتوقف تلك العربة الصغيرة **(الصالون)**، المتلهفة لاحتوائه، وهنا تم تحويله برفق إلى داخلها، وهو يتطلع على الحاضرين من المودعين، مستخدماً تلك **العينين اللامعتين البارقتين**، اللتان تتحدثان في سلاسة جزلة، إنابة عن أدوات الكلام، التي تتحدث في صمت وكأنّي بها **تقول:**

www.omerelammas.com

إذا كان الكلام من فضة

فالصمت من ذهب.

ملوحاً بكلتا يديا مودعاً ولسان حالي يقول:

وداعاً أيها المبدع، وإلى لقاء قريب يا....

(" فيتوري")

www.omerelammas.com

www.omerelammas.com